

Alain Tarrius

La Remontée des Sud: Afghans et Marocains en Europe méridionale
(La Tour d'Aigues: Editions de l'Aube, 2007). 201 p. (Monde en cours)

الصعود من دول الجنوب: الأفغانيون والمغاربة في أوروبا الجنوبية

نيكولا بويغ^(*)

باحث في معهد أبحاث التنمية (IRD)، باريس - فرنسا.

- ١ -

التي تؤدي إلى مراجعة النظر في التقسيم المجالي. ولكي يصف الأقاليم الدائرية (مجال التنقل) «Territoires circulatoires» (العيش هنا وهناك) التي تستوجب هذه المراجعة، اعتمد المؤلف على دراسات سابقة شملت شبكات مصادرها غرب أوروبا، متكوّنة من صغار المهاجرين المغاربة. كما انطلق من دراسة ميدانية حديثة تتمحور حول شبكات من شرقي المتوسط وبلدان البلقان، قادمة من أفغانستان والقوقاز، عبر إيران وتركيا والإمارات العربية المتحدة وسورية.

تكمن أهمية كتاب تاريوس في تسليط الأضواء على هذه الظواهر المعاصرة التي تستوجب إعادة صياغة مفاهيم الاستقرار والترحال داخل الفضاءات المهمّشة التي أنتجتها العولمة. ولقد مكّنت هذه الدراسة النموذجية الممتدة على سنتين (٢٠٠٤ - ٢٠٠٦) من الوقوف على معطيات مهمة كانت غير معلومة، تتعلق بتحركات

بالتوازي مع الأشكال المألوفة لهجرة اليد العاملة، ظهر حشدٌ من صغار المتدخلين الاقتصاديين العابرين للحدود القومية، شملوا بنشاطهم شرائح فقيرة في البلدان المتقدمة، تحتل المراتب الدنيا في مجتمعاتها، كما هو الحال في بلدان الجنوب، أفقر بلدان العالم، وذلك بترويج سلع محظورة في الأسواق الموازية (Economie souterraine).

ويتموقع مهاجرو العولمة الجدد خارج الأطر التجارية والضوابط القانونية لتعاطي أنشطة من شأنها إحداث تغييراتٍ على مستوى الكون. ذلك ما خلص إليه آلان تاريوس في دراسته القيّمة.

يتوقف هذا الأخير عند تنظيمات وأداء هذه المجموعات المهمة في الأبحاث السابقة (التي اقتفى أثرها في فضاء أوروبا الجنوبية) ليحدّد مجالات تنقلها

موسومة بالتوتر بين منطق التشريعات الوطنية للاندماج، وقوة تكثيف المبادلات داخل الدوائر السكنية الكبرى، وهي قوة دعامتها منطق المهاجرين الذي يتجاوز الحدود القومية. وبذلك تبدو المدينة فضاء معقداً، ولكن مفتوحاً في آن، إذ لا تكفي بذاتها بما أن تطورها يتوقف على الشرائح التي لا تنتمي إليها حصرياً، وإن كان تشكل جزءاً من نسيجها.

- ٢ -

بهذا التحليل يتميز المؤلف من مقاربات سيبال وفيبار ومدرسة شيكاغو، ذلك أنه رصد ظواهر جديدة تستدعي النظر في ماهية العيش المشترك في الفضاء الحضري أو مفهومه. وفي الصورة، التي نحملها عن الغريب الذي يتموقع داخل الفضاء وخارجه، مما يمكنه من قراءة وتحليل جيد للمدينة، ويؤدي إلى تغيير أشكال التزاماته الاجتماعية ودوره الاستكشافي للمدينة وتعقيدات.

وفي ضوء هذا الانقلاب في المنظور، يصبح التوقع البيئي مصدر كفاءات مهجنة وأداة للتواجد في الفضاء وابتعاد عنه في آن، مما ينعكس على الأمكنة، وطرائق الاستقرار ومصادر التماهي، ومن بينها الدولة (ص ١٣٠).

وفي ما يتعلق بشكل الهجرة الجديد الذي بدأ يترسّخ على الأقل في جنوب أوروبا، فقد أفضى إلى أقاليم دائرية، وهو مصطلح جوهري، نعتة المؤلف في دراسته حول التجار المغاربة في مرسيليا، وهو يحيل على مشاركة الفضاء

المهاجرين وممارساتهم غير النمطية. كما أن ذلك مكن، من خلال الشهادات ووصف أوضاع المهاجرين، من رسم واقعهم المعيشي، وكيفية إقامة مواطن استقرار ظرفية لهم، رغم التنقل، وذلك على امتداد الشبكات التجارية، سواءً تعلق الأمر بالأفغان في البلقان (الفصل الأول) أو المغاربة في جنوب فرنسا وإسبانيا (الفصل الثاني)، فضلاً عن أنه وقع تصوّر علاقة المهاجرين بالمدينة والتغيرات الحضرية الناجمة عن ذلك انطلاقاً من أنشطة هؤلاء (الفصل الثالث).

ولقد تجسّدت هذه العلاقة في غزو هذه الشبكات للفضاء الذي أهملت العولة، مكونة بهذه الشاكلة أقاليم عابرة للحدود القومية جديدة لا يرقى الشك إلى مداها وحركيتها.

وقبل أن يخلص المؤلف إلى تبعات هذه الظواهر من حيث مساهمة المهاجرين في تشكيل المجالات الحضرية الجديدة، تطرق إلى المقاربات العديدة لعلاقات الأنا بالآخر، أخذاً بعين الاعتبار المبادلات، ودخول الأشخاص وخروجهم وتنوع الأوساط التي تكوّنوها، ذلك أن التفاعلات الفردية أو الجماعية أكثر إفادة عن الهويات المعبرة اجتماعياً (ص ١٢٩).

علاوة على هذه الإفادة حول هذه التشكلات الجديدة المنصّدة، يتناول الكاتب بالدرس الحدود، وأشكال العبور، والتغيرات المختلفة التي تطال العيش المشترك والانتماءات الحضرية.

ولقد بيّن أنه نتيجة لذلك، تظهر أنماط مختلفة من الحدود، داخل المجال،

بالإضافة إلى ذلك، فإن تشكّل الفضاء الحضري أصبح مرتعناً بدinamيات خارجية، وتمثل صوفيا في بلغاريا، وأليكانت في أسبانيا، نموذجين بينيين للتغيّرات الحضرية، انطلاقاً من حركية هجرة حديثة.

وخاتمة القول، إن هذه الأنماط المستحدثة للهجرة المتعدّدة القوميات ما زالت تثير مخاوف وعداء الدول التي تجد عنثاً في ضبط الروابط الكثيرة للمهاجرين، والتي تبقى أسيرة الصراع القائم على الانتماء (إما تكون منا أو فلترحل).

ويتمم الكاتب دراسته بقوله: «يتمخّض الآن في الفضاءات الأوروبية ميلاد أقوام بلا أوطان يجاهدون في انتزاع اعتراف بوجودهم في مجالات جدّ بعيدة (Des ailleurs)، اعتراف نحجّبهُ عنهم» □

(Socialisation d'espaces) بوصفها دعامة لممارسات دينامية.

هذه الأقاليم الدائرية تتطابق مع المجتمعات المحلية، وتنصهر في أحياء المدينة، متحاشية منطق المنافسة والانعزال داخل فضاء معين.

وينجّر عن هذا التمشّي إعادة النظر في تحديد مكوّنات الهوية التي لم تعد تقتصر على الثبات في الفضاء. فالأهليّة (Autochtonie) في انحسار بين، في حين تبدو فضاءات العبور والتواصل في اتساع مُطردٍ، متجاوزة بذلك المناطق المجاورة والمدن. وينجّر عن ذلك انكفاء يُترجم بالانزياح عن المكان - العالم (Lieu monde) إلى مكان العبور (Lieu passage)، ذلك أن المكان - العالم المتمثل في المدينة التي تبرز التحوّلات والانتماءات والهويات، قد عمّضت بشكل من الأشكال بفضاء العبور، حيث انصياح المهاجرين الجدد للمنطق التجاري للشركات العالمية الكبرى.